الحريَّةُ في الممارسةِ واحترامُ التنوُّعِ
بينَ أنسنةِ الطَّرحِ وأنسنةِ المفهومِ وأنسنةِ المعالجةِ

مصطفىٰ حجازي(*)

فضيلةَ الإمامِ الأكبرِ.. شيخَ الأزهرِ الشريفِ..

أصحابَ الفخامةِ والمعالي والفضيلةِ والسعادةِ..

أصحابَ السيادةِ والغبطةِ والنيافةِ..

الحفلُ الكريمُ..

في رحابِ أزهرِ الإنسانيَّةِ قاطبةً نلتقي.. وتسعُنا مصرُنا الَّتي ما ضاقتْ يومًا ما بقيتْ فيها فطرةُ التوحيدِ والتَّسامحِ والتَّوسيطِ..

مِصرُ الَّتي ما كانتْ إلا بِمصرَ فطرةُ التوحيدِ، الحاضنةُ لكلِّ باحثٍ عن الحقيقةِ..

ومصرُ الَّتي ما كانتْ إلا بِمصرَ فطرةُ التسامحِ، القابلةُ بالمختلِفِ حتَّىٰ التنازلِ حينًا والحكمةِ والتسامي أحيانًا..

ومصرُ الَّتي ما كانتْ إلا بمصرَ فطرةُ توسيطِ كلِّ طرفٍ، وعَقْلِ كلِّ شططٍ، حتَّىٰ كانَ القَدَرُ والقَدْرُ رباطًا وقيادةً..

الحفلُ الكريمُ..

نلتقي اليومَ وإنسانيتُنا في مفترقِ طُرُقٍ جديدٍ لنَسقٍ معرفيٍّ جديدٍ.. في لحظةِ حقيقةٍ ممتدةٍ..

ثقيلةٍ نعمْ..!

كاشفةٍ نعمْ.. !

داميةٍ نعمْ..!

ولكنَّها لحظةٌ حقيقةٌ توجَّبتْ بسُنَنِ اللهِ الماضيةِ في خلقهِ.. الَّتي تقضي بدْفعِ الناسِ بعضِهم ببعضٍ.. وليميزَ الخبيثَ من الطيِّبِ: ُش ص ض ط ظ ع غ [ـ] ق كِ [الأنفال: ٣٧].

السيداتُ والسادةُ..

لن نَصدُقَ لحظتَنا تلكَ ونحنُ نتحدَّثُ عنِ المواطنةِ والحريَّةِ والتنوُّعِ إلَّا إذا صدقْنا أنفسَنا بأنَّه وإنْ لمْ نَشْرَعْ في أنسنةِ الطرحِ وأنسنةِ المفهومِ وأنسنةِ المعالجةِ، فقد ذُهِلْنا عن لحظتِنا تلكَ ولنْ أقولَ ضيَّعْناها، فقَدَرُ اللهِ أنْ تمضيَ سُنَّةُ استبدالِه، إنْ لمْ نكنْ أهلًا للحظتِنا وعلىٰ قدرِ تحدِّيها.

قضيتُنا -أو قُلْ تحدِّينا المبدئيُّ- أنْ نعرفَ ونحنُ نتصدَّىٰ لقضايانا المصيريَّةِ قضايا البقاءِ والوجودِ، أنْ نعرفَ في أيِّ عالمٍ نحيا، وأيَّ إنسانيَّةٍ وبشريَّةٍ نخاطِبُ.

فكما قال نبيُّنا صلىٰ الله عليه وسلم في حديثِه الشريفِ: «لاعِبْهُ سبعًا، أدِّبْهُ سبعًا، صاحِبْهُ سبعًا» وهو يتحدَّثُ عن البشرِ الفردِ وهو يخطو من طفولةِ وعيٍ الَّتي تستأهل الحُنوَّ والمداعبةَ.. إلىٰ مراهقةِ وعيٍ تستلزمُ التأديبَ والتقويمَ.. إلىٰ نضجِ وعيٍ يقتضي الصُّحْبَةَ علىٰ قاعدةِ الحوارِ والنقاشِ والإقناعِ.. فكأنَّنا بصددِ إنسانيَّةٍ في سَبْعِها الأخيرةِ.. غادرتْ مراهقةَ وعيِها إلىٰ نضجِهِ وصارتْ علىٰ دربِ المسئوليَّةِ.

إنسانيَّةٌ غادرتْ عصرَ الصناعةِ.. عصرَ القولبةِ وعصرَ الأيديولوجيا الجامدةِ.. إلىٰ عصرِ المعلوماتيَّةِ، ما بعدَ الصناعةِ وما بعدَ الأيديولوجيا.. والَّتي ما فتئتْ تغادرُه وتستشرفُ عصرَها الجديدَ ونسقَها الجديدَ.. عصرَ الحكمةِ وعصرَ المبدأِ.. عصرَ البحثِ عن الحقيقةِ والتحرُّرِ من شرنقةِ واقعٍ.

عصرٌ يجعلُ حقيقةَ كلِّ واقعٍ في اقتفائِه لمقاصدِه ومآلاتِه.. عصرٌ يجعلُ من سؤالِ «لماذا» قبلَ سؤالِ «كيف» قاعدةَ منطقٍ «لأيِّ» حوارٍ يُرجىٰ فيه خيرٌ.

عصرٌ يجعلُ سؤالَ «لماذا» الأكثرَ إلحاحًا وإنْ لمْ يكنِ الأكثرَ توجبًا من سؤالِ «كيفَ».

الإنسانيَّةُ اليومَ في مفترقِ طرقٍ جديدٍ لنسقٍ معرفيٍّ جديدٍ.. فلأوَّلِ مرَّةٍ تستباحُ بشريَّتُها وإنسانيَّتُها.. أي أنَّه ولأوَّل مرةٍ منذُ بَدْءِ الخليقةِ يُستباحُ عقلُها كما يُستباحُ كُنْهُها البيولوجي وفي ذلك تفصيلٌ في مَعرِضٍ آخرَ.

الحفلُ الكريمُ.

نحنُ علىٰ مفترقِ الطرقِ.. تتحوَّلُ مَهَمَّةُ قادةِ العقلِ والوجدانِ من المهامِّ التغييريَّةِ كما نظرَ لها كثيرٌ من المفكِّرينَ.. إلىٰ أن يُصبحَ دَورُه أولًا تأويلَ العالمِ لأن يفقهَ عُمقَ ما يحدُثُ حولَه.

مفترقُ طرقٍ.. تكونُ أهليَّةُ كلِّ قيادةٍ دينيَّةٍ أو فكريَّةٍ أو ثقافيَّةٍ أو حتَّىٰ سياسيَّةٍ مرتهنةً أكثرَ بالإجابةِ عن أسئلةِ السببيَّةِ أو الغائيَّةِ أو المقاصديَّةِ لا عنْ أسئلةِ الكيفيَّةِ.. وتلكَ مسئوليتُنا جميعًا.. من يُظِلُّهم هذا الجمعُ الكريم وغيرُنا ممَّن

يحملونَ همومَ مجتمعاتِنا العربيةِ والإنسانيَّةِ قاطبةً، ومسئوليَّةَ عقلِها ووجدانِها واقتفائِها لإنسانيتِها وترقِّيها.

السيداتُ والسَّادةُ.

إنَّ إدراكَ الفرقِ بينَ الواقعِ والحقيقةِ.. في طرحِ القضايا والبحثِ فيها هو السبيلُ إلىٰ إدراكِ نجاحاتِها.. وهو -وبدونِ تزيُّدٍ- وعدٌ، وهذا النسقُ الإنسانيُّ الجديدُ ووعيدُه.. وعد بالترقي ووعيد بالتخلُّفِ والتردِّي..

فلنا أنْ نعلمَ أنَّه بقدرِ ما نَلِجُ إلىٰ قضيتِنا في المواطنةِ والتنوُّعِ والحريَّةِ علىٰ أرضيَّةِ «تنوُّعٍ إنسانيٍّ» لا علىٰ أرضيَّةِ «اختلافِ بشرٍ» سيكونُ وعدُ النجاةِ والفوزِ لمنطقتِنا والعالمِ من أتُونِ جنونٍ يُرادُ لهُ.

والفارقُ لو تعلمونَ عظيمٌ!

فعصرُنا الجديدُ الَّذي نواجه تحدِّيَنا الحالَّ فيه عصرٌ يُؤَنسِنُ المعانيَ ويُحرِّرُ المفاهيمَ ممَّا سُجِنَتْ فيهِ من اصطلاحاتِ وتعريفاتِ الدفتريَّةِ والقانونيَّةِ والهيكليَّةِ إلىٰ مفاهيمِها الحقيقيَّةِ.

فمن تعريفٍ قانونيٍّ ودفتريٍّ للإرهابِ علىٰ كونِه جريمةً.. إلىٰ مفهومٍ حقيقيٍّ له علىٰ كونِه مزيجًا مهلكًا من قبحٍ ويأسٍ وجهلٍ وجريمةٍ.. فإذا لم نواجهْه بإصرارٍ علىٰ الجمالِ والعلمِ والحلمِ والأملِ والعدلِ نكونُ في صراعٍ مع عدوٍّ متخيَّلٍ غيرِ الَّذي يملأُ حياتَنا دموعًا ودماءً.. ولن يُجديَ معه كثرةُ عتادٍ أو عُدَّةٍ.

فلن يردعَ مزيدٌ من القُوَّةِ ما فَشِلَتْ دونَه القوةُ!

الحفلُ الكريمُ..

وإذا كانَ عنوانُنا اليومَ هو الحريَّةَ في الممارسةِ واحترامُ التنوُّع.. وإذا أردْنا أنْ نناقشَه لإنسانِ اليومِ ولعصرِنا الذين نعيشُه.. وليسَ أن نجترَّ مفرداتٍ بمفاهيمِ قرونٍ خلتْ، فعلينا أنْ نسموَ بمقاربتِنا لتلكَ القضيةِ عن السياقِ الإجرائيِّ والماديِّ والوسائليِّ والحركيِّ والوثنيِّ والواقعيِّ.. فلا نسقطُ في ممارساتِ المحاصصةِ والطائفيَّةِ والعنصريَّةِ على أرضيَّةِ الاصطفائيَّةِ -الدِّينِ أو العرقِ أو المذهبِ- وأنْ نُهرَعَ إلى سياقِ الحقيقةِ وسياقِ المآلاتِ وسياقِ المنشأِ وسياقٍ غائيٍّ مبدئيٍّ.. لنستشرفَ مرادَ اللهِ في خلقهِ ولخلقهِ بين تكريمٍ بالعقلِ.. وجبرٍ على الاختيارِ.

وأنْ نوطِّنَ أنفسَنا أوَّلًا أنَّه ثمَّةَ فارقٌ كبيرٌ بين إدراكِ حقيقةِ التنوُّعِ.. وبينَ إذعانٍ لواقعٍ؛ فالإذعانُ لواقعٍ غيرُ إدراكِ الحقيقةِ.. إدراكُ الحقيقةِ يدفعُ إلى التماهي فيها والتأسيسِ عليها.. فتصبحُ دليلَ مآلٍ..أمَّا الإذعانُ لواقعٍ يدفعُ لممالئتِه ومراوغةِ استحقاقاتِه ومحاربتِه سرًّا.

فإذا لم نؤنسنْ معنى التنوُّعِ ومفهومَه؛ أي اقتفَيْنا حقيقتَه.. وفقطْ استنمنا إلى واقعِه المُشاهَدِ كاختلافٍ بينَ بشرٍ وليسَ كتنوُّعٍ أناسيَّ.. لانصرفَ الجُهدُ -مهما أردْنا أن نرقى بتسميتِه- إلى إدارةِ الاختلافِ أوالاستثمارِ فيهِ أو التوهُّمِ بمحاولةِ إلغائِهِ وتنميطِ وقولبةِ البشرِ.. أو الإمعانِ في العنصريَّةِ والإفسادِ مهما أنفقنا العمرَ والجهدَ ونحنُ نتحدَّثُ عن التنوَّعِ.

أمَّا إذا سمونا اجتهادًا إلى محاولةِ إدراكِ حقيقةِ التنوُّعِ لحملتنا إلى آفاقِ تآزُرِ الجُهدِ وتعظيمِ العوائدِ على أرضيَّةِ التَّعاونِ وجبرِ النقصِ والعجزِ على أرضيَّةِ التكاملِ والبحثِ عن مشتركاتِ السعادةِ.. وحينها ستكونُ قضيَّةُ حريَّةِ الحياةِ برُمَّتها هي المتنَ، ولنْ يوجدَ منطقٌ مُعوَجٌّ قد يدفعُ العنتَ في حريَّةِ الممارسةِ أو الفكرِ أوالعقيدةِ.

السيداتُ والسادةُ..

الأنسنةُ فلسفةٌ؛ هي المقاربةُ مع توحيدٍ، أي وَحدةِ منشأٍ ومآلٍ.. هي منطقُ التناغمِ الَّذي يُعطي للواقعِ حقيقتَه.. فكما أنَّ إنسانيَّةَ البشرِ هي حقيقتُه.. فالتنوُّعُ هو حقيقةُ الاختلافِ..

فكلُّنا إنسانٌ وتأتي قضيَّةُ الاصطفاءِ إثباتًا للمسئوليَّةِ.. وليسَ ترسيخًا لعنصريَّةٍ أو مدخلِ ضلالِ الوثنيَّةِ.

الحفلُ الكريمُ..

مسئوليَّتُنا أن نَعِيَ عالَمَنا ونؤوِّلَه كي نكونَ أهلًا للتصدِّي لقضاياه.

الحفلُ الكريمُ..

فلتكنْ كلمةٌ سواءٌ على حقيقةِ وحدانيَّةِ الخالقِ، تجمعُنا قبلَ أنْ نشرعَ في بناءِ واقعٍ هشٍّ من التفاهماتِ الَّتي ترى واقعَ قوَّةِ الهيمنةِ والمادَّةِ أكثرَ منها تستشرفُ حقيقةَ قدرةِ العقلِ والوجدانِ..

مرةً أخرىٰ فلنجتهدَ لِنُدرِكَ الفرقَ الكبيرَ بينَ واقعٍ مفروضٍ مُشاهَدٍ من قوَّةٍ متجبِّرةٍ واستباحةٍ لكلِّ ضعيفٍ ومتراجعٍ، ونارِ جُنونٍ يُرجىٰ لنا أنْ ننشغلَ بها أونُحْرَقَ فيها.. وبينَ حقيقةٍ فيها كلُّ الحلِّ والعقدِ.. مفاتح التعامل معها إلا في كلِّ غيب غير مشاهدٍ من عقلٍ ومنطقٍ ووجدانٍ..

آن لنا أن نكفَّ عن انهزامِنا أمامَ الواقعِ.. وَلنَصنع واقعًا جديدًا ولكن علىٰ أرضيَّةِ حقيقةِ عصرٍ جديدٍ، وإنْ لمْ نفعلْ ولمْ نُوغِلْ فيهِ برفقٍ بَقِينا كالمُنبَتِّ؛ لا أرضًا قطعَ، ولا ظهرًا أبقىٰ..

دُمْتُمْ بخيرٍ..

وسلامُ اللهِ عليكمْ ورحمتُه وبركاتُه..

د. مصطفي حجازي

القاهرة ٢٨ فبراير ٢٠١٧م.

***